

المميزات الفنية لأسلوب محمد البشير الإبراهيمي
-الخطبة الأولى أنموذجا-
أ.قديدح عبد المجيد جامعة برج بوعريريج

الملخص

يتميز خطاب البشير الإبراهيمي بأسلوب نسقي بلاغي بديع؛ يربط بين القيمة الفنية وصدى الفكرة المؤثرة على المتلقي؛ فقد وظّف موهبته الأدبية الفذة وبيانه الرفيع وقلمه المستنير في مجمل كتاباته وخطبه؛ متأثراً بمدرسة الصنعة اللفظية التي تُعنى باختيار الألفاظ و تزيين العبارة بألوان البيان والبديع؛ دون إهمال المعنى؛ معتمداً على كثرة الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف؛ والأشعار والأقوال المأثورة.. وذلك لتشبعه بالثقافة العربية والإسلامية؛ وحفظه لكتاب الله العزيز؛ موظفاً في ذلك الصور البيانية والمحسنات البديعية وهذا ما نجده في أول خطبة ألقاها بعد الاستقلال بجامع كتشاوة 1962. كلمات مفتاح: الأسلوب - البديع - الصور البيانية - المحسنات البديعية.

Résumé :

Discours de Bachir Ibrahimi prose de style rhétorique, reliant la valeur artistique et l'écho de l'idée affectant le récepteur, il employa son inimitable littéraire talent et sa haute et sa plume éclairée dans l'ensemble de ses écrits et ses discours, de sa fabrication verbale scolaire qui signifie choisir verbeux et décorer les couleurs de ferry de la déclaration et rhétorique; sans négliger ce qui signifie, se fondant sur la citation fréquente modulée du Coran et du Hadith, poèmes et aphorismes .. de façon à la saturation de la culture arabe et islamique, et sauver le livre saint; employés des images graphiques et de valorisation et voici ce que nous trouvons dans le premier sermon après l'indépendance mosquée Ketchaoua 1962

تمهيد:

في بداية هذا المقال؛ كان لزاما عليّ التعريف بالرجل - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (رحمه الله) الذي أريد أن أدرس بعض مميّزات أسلوب خطبته الأولى التي ألقاها بجامع كنتاوة يوم 02 نوفمبر 1962؛ ولو في بضعة أسطر؛ لأنّ التعريف به وبمكانته العلمية وبشخصيته الكاريزمية هو تعريف لأسلوبه؛ فالأسلوب هو الرجل نفسه حسب عبارة "بيفون" الشهيرة؛ كما يرتبط بالجانب الشخصي المحض للكاتب؛ فهو عند رولان بارت "لغة استكشافية، تغوص في الميثولوجيا الشخصية والسردية للكاتب" وهذا ما يحيلنا بشكل أو بآخر، إلى عبارة بيفون سالفة الذكر.

كما أنّ الأسلوب يُعدّ بصمة الكاتب في كتاباته ومفتاح هامّ للولوج إلى أغوار فكره وتفكيره وأفكاره؛ وهو دليلنا (الأسلوب) في بحثنا هذا لدراسة أول خطبة للشيخ العلامة البشير الإبراهيمي - رحمه الله - فمن يكون هذا الرجل؟.

هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وُلد في 14 جوان عام 1889 بـ أولاد أبراهم؛ وهي بلدية تابعة حاليا لدائرة رأس الوادي بولاية برج بوعريريج، وتوفي يوم الخميس 20 ماي سنة 1965 بإقامته الجبرية بمنزله؛ يُعدّ من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي ومن العلماء العاملين في الجزائر؛ كان يحاضر في كل مكان يصل إليه؛ تساعد خطاباته وبراعته الأدبية؛ وهو رفيق النضال لعبد الحميد بن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، ونائبه ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين، وكاتب تبني أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات؛ تلقى تعليمه الأوّل على يد والده وعمه؛ حفظ القرآن ودرس بعض المتون في الفقه واللغة برأس الوادي (1).

(1) الموسوعة الحرة - وكيبيديا - بتصرّف.

غادر الجزائر عام 1330 هـ الموافق 1911 م ملتحقاً بوالده الذي كان قد سبقه إلى الحجاز، وتابع تعليمه في المدينة، وتعرف على الشيخ العربي التبسي عندما زار المدينة عام 1913م، وغادر الحجاز عام 1335 هـ الموافق 1916م قاصداً دمشق، حيث اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية؛ وهناك التقى بعلماء دمشق وأدبائها الذين ذكرهم بعد ثلاثين سنة من عودته إلى الجزائر ومن ذلك ما كتب فيهم قوله: "ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً، فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر، ولا أكذب الله، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر) ولكن.. من لي فيه بصدر رحب، وصحب كأولئك الصحب؛ ويرعى الله عهد دمشق الفيحاء.. فكم كانت لنا فيها من مجالس نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية" (1).

إنّ القارئ للخطبة والمتصفح لها والمتمعن فيها يكتشف مميزات الأسلوب الذي يعتمد على الشيخ في أغلب كتاباته؛ فتجده يزوج بين الفصاحة والبلاغة تارة ويمزج بين المحسنات البديعية والصور البيانية تارة أخرى؛ وهذا في كلّ مقالاته الإصلاحية والفكرية والسياسية التي كتبها؛ فأسلوبه له نكهة خاصة وذوق مميز فهو يتفنن فيه من خلال:

اختيار أجود الألفاظ وانتقاء أحسن العبارات ببراعة؛ وتظهر هذه البراعة في مواطن كتاباته المتنوعة؛ فمثلاً: حين نقرأ للشيخ البشير الإبراهيمي قوله: «من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية؛ فإذا استقام له ذلك، استقام له العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن

(1) جريدة البصائر العدد 64 عام 1984؛ ص 4.

النجاح والتّمام له؛ فإنّ تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل»⁽¹⁾

فهنا نلتّمس ذلك التفريق المبكّر بين القراءة والدراسة.. فالأولى تتصرف إلى المخالطة الحميمة للموضوع والجوس خلاله بعيدا في أغواره التماسا لدقيق معانيه وظلاله، أما الدراسة فغير ذلك، لأنها تتصرف إلى التخطيط استنادا إلى اتجاه الأمة، ودرجة استعدادها لتحقيق المطامح والرؤى المستقبلية.

وكأن كما يقول الأستاذ حبيب مونسي: « القراءة هي التعرّف على حقيقة الأمة في مشمولها الحضاري تأريخا وفكرا وهوية وانتماء، والدراسة هي التهيئة التي تمضي بها إلى موعودها في الزمن الآتي تحقيقا وإنجازا»⁽²⁾.

إحاطته بالّلغة العربية وأساليبها البيانية ومحاسنها البديعية؛ ويتجلى ذلك حين نستعيد الموقف الذي اكتنف "نص الخطبة" خاصة في قوله ((يا أتباع محمد عليه السلام هذا هو اليوم الأزهر الأنور؛ وهذا هو اليوم الأغرّ المحجّل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألّق في مفرقها، والصحيفة المذهّبة الحواشي والطرز من كتابها))؛ نجد أنفسنا أمام حشود اكتظّ بها فناء المسجد، وضافت بها ساحته، وغصّت بها الشوارع المحيطة به؛ وقد اختلط فيها الرجال والنساء والأطفال، وحضرها المجاهدون والسياسيون، ومختلف طبقات الشعب المثقّفة؛ إنّها تمثل الجزائر برمتها جاءت لتستمع إلى "بيان المسجد" في أوّل جمعة من أيام الاستقلال؛ والخطيب الذي سيعلو درجات

(1) محمد البشير الإبراهيمي (حقائق) جريدة البصائر 2 - 1948.

(2) حبيب مونسي؛ بحث بعنوان "مفهوم الاستقلال ورؤى المستقبل في أوّل خطبة للبشير الإبراهيمي" كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ جامعة سيدي بلعباس.

المنبر يدرك أن عليه تلبية مطامح كل سامع، وتزكية رغبات كل منتظر.. وعليه أن يجعل من كلامه فضاء يجد كل واحد منهم فسحته فيه.

حسن التصرف في تنوع الأساليب؛ بين الخبري والإنشائي فالأول مثاله في الخطبة قوله: « الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم».

وهو حين يتعمد ترديد الحمد، لا يفعل ذلك على سبيل التأكيد اللفظي وحسب، وإنما الحمد الأول حمد الخطبة، والحمد الثاني حمد تمام كلمات الله - عز و جل - تلك الكلمات التي تجري بها سنن الله - عز و جل - في خلقه جريانا مطردا يؤسس "صدق اليقين" عند المؤمنين من عباده؛ قال القرطبي: « قال ابن عباس: مواعيد ربك، فلا مغير لها؛ والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقةات من الوعد والوعيد وغيرهما... (صدقا وعدلا) أي فيما وعد وحكم، لا راد لقضائه ولا خلف في وعده» (1).

ومثال الثاني فيتجلى في النداء الذي تتعدد صيغه وتتلون بين تعميم وتخصيص؛ فالمتخصص لنص الخطبة، تستوقفه هذه النداءات التي بثها "البشير الإبراهيمي" في كلمته «حيث يجد أمرا عجيبا يتعلق بهندسة الكلام، ومعرفة طبقات الجمهور، وتوزعه في المسجد وخارجه؛ وكأن عين الخطيب تجول في أرجاء المكان، وتطل وراء الحيطان، وتذهب بعيدا في أطراف الأرض يتبعها صوته إيذانا ببعث جديد» (2).

(1) القرطبي - تفسير القرطبي ج 7 ؛ ص 71؛ مصدر الكتاب : موقع يعسوب .

(2) حبيب مونسي؛ مرجع سابق.

وقد أشار الأستاذ حبيب مونسي في بحث له؛ حول أول خطبة للبشير الإبراهيمي بعنوان " فهم جديد للحراك التاريخي " حيث وصف عبقرية الخطيب بأنه العالم الذي يدرك أنّ أمامه جمهورا غير متجانس البنية، متفاوت المستوى، مختلف الثقافة، إلا أنه يحمل بين جوانحه همّا واحدا، ويتطلع إلى غد واحد؛ ومن ثم كانت النداءات التي أطلقها "البشير الإبراهيمي" تخاطب كل واحد منهم بحسب الانتماء الذي يدرك والجوار الذي يستشعر؛ ورتبها وفق مقتضيات الأفكار التي يعالج؛ فكانت على النحو الآتي :

- يا أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم).

- يا معشر الجزائريين .

- أيّها المؤمنون .

- يا معشر المؤمنين

- يا أيّها المسلمون .

- يا إخواني.

الاقتباس والنّصّمين: فقد اتكأ على حافظته الجبّارة فانثالت عليه عبارات القرآن؛ فاختر من قول الله تعالى آيات تتسجم مع الواقع منها: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (1) .

"إِنَّمَا يَعْمرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" (2).

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

(1) القرآن الكريم: سورة البقرة؛ الآية رقم 114.

(2) القرآن الكريم: سورة التوبة؛ الآية رقم 18.

خوفهم أماناً؛ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" (1).

ومن الأحاديث اختار ما يناسب الموقف والمقام: ((إن الشيطان قد ينس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك))، ومن الأمثال ذكر الحويلة والاسترجاع ومن الحكم أشار إلى حكم تتوافق مع الحال والزمان كقوله ((أخرج القوة من الضعف وولد الحرية من العبودية وجعل الموت طريقاً إلى الحياة)) (2).

وأما الأشعار فقد ذكر: (3)

سكتُ فقالوا: هدنة من مسالم وقلتُ، فقالوا ثورة من محارب
وما أنا إلا البحر يلقاك ساكناً ويلقاك جيّاشاً مهول الغوارب
وما في سكون البحر منجاة راسب ولا في ارتجاج البحر عصمة سارب
وذكر أيضاً في خطبته قول الشاعر: (4)
أحييك يا مغنى الكمال بواجب وأنفق في أوصافك الغر أوقاتي
كثافة استعماله للمحسنات البديعية وهي ليست من باب التكلف بل
هيمن باب البراعة و خصوبة السليقة وهذا ما تجلّى في مضمون خطبته.
الإيجاز في كتاباته؛ فإذا كتب أوجز، ولم يُطنب.
الخاتمة:

إنّ هذا التنوع في استعمالاته للغة جاء على لسانه وقلمه حتّى أصبحت جزءاً متلاحماً من أسلوبه؛ فهو واحد من "أصحاب الصنعة اللفظية" التي تُعنى

(1) القرآن الكريم: سورة النور؛ الآية رقم 55.

(2) رواه أحمد عن أبي هريرة؛ وأصله في صحيح مسلم.

(3) نشرت في العدد 150 من جريدة «البصائر» 9 أبريل سنة 1951. 3

(4) د. أحمد طالب الإبراهيمي؛ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي الجزء 5 ص 306؛ مطبعة دار الغرب الإسلامي بيروت ط1؛ سنة 1997.

بانتقاء الأجود من فصيح اللغة العربية، والاستقاء من التراث العربي الأصيل؛
إنّه أحد أهمّ أعضاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" ومن أبرز رواد
الإصلاح في الجزائر وفي غيرها من البلاد العربية.

موضوعات خطبه وكتاباتهِ تتوعّت ما بين إصلاحية واجتماعية
وسياسية؛ طبعها أسلوبه المتميّز بجزالة اللفظ ووضوح المعنى ورزانة الفكرة
وسعة الأفق وبُعد النظر وصحة التوجّه وأصالة المنبع؛ هذه الصفات تؤكّد على
عبقريّة الرجل ومكانته الرفيعة؛ فهو فخر الجزائر ماضيها وحاضرها.

1. المصادر والمراجع:

2. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم (نسخة إلكترونية).
3. أحمد طالب الإبراهيمي؛ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي الجزء 5؛ مطبعة دار
الغرب الإسلامي بيروت ط1؛ سنة 1997.
4. حبيب مونسي ؛ بحث بعنوان "مفهوم الاستقلال ورؤى المستقبل في أول خطبة للبشير
الإبراهيمي" كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ جامعة سيدي بلعباس.
5. جريدة البصائر؛ محمد البشير الإبراهيمي (حقائق) - 1948 .
6. جريدة البصائر العدد 64 عام 1948.
7. جريدة «البصائر» العدد 150؛ 9 أبريل سنة 1951.
8. صحيح مسلم؛ رواه أحمد عن أبي هريرة .
9. القرطبي - تفسير القرطبي ج 7 مصدر الكتاب : موقع يعسوب .
10. الموسوعة الحرة؛ وكيبديا بتصرّف.

